

الفصل الثاني

التشريق المسلم والفان

انتشر الإسلام في أرجاء الدنيا قاطبة .

وفي آسيا الوسطى كان للعلاقات التجارية بين المسلمين وأهل تلك البلاد أثرها في أن يقبل الترك على اعتناق الإسلام مثل قره خان في كشغر، والغز في القرن العاشر للميلاد، ونشط قره خان سنة ٩٩٩ الميلادية واستولوا على بخارى وسمرقند من أيدي السامانيين، وحاربوا السلطان محمود الغزنوي طويلاً، لكنهم انهزموا .

نشط السلاجقة يشنون الغارات على قبائل قره خان في آسيا الوسطى زمن ملكشاه، ومدوا سلطانهم من حدود بلاد الأيغور شرقاً إلى البحر المتوسط غرباً .

لكن بدأ ملك السلاجقة في التداعي زمن الخليفة الناصر لدين الله .

أما الخوارزميون فقد احتل خوارزمشاه تكش خراسان حوالي ١١٩٠م، ولما حاول آخر السلاطين السلاجقة في إيران أن يستعيد سلطته استنجد الخليفة العباسي بخوارزمشاه الذي استولى على الري وهمذان .

وخلف محمد خوارزمشاه أباه سنة ١٢٠٠م، وانتزع إقليم ما وراء النهر من يد رجال بلاد الخطا سنة ١٢١١م، وفي عهده امتدت حدود مملكته من فرغانة إلى بحيرة آرال.

وسنعرض للسجال الذي حدث بين محمد خوارزمشاه والخان العظيم فيما بعد.

ويجيء دور الأيوبيين بعد وفاة صلاح الدين في عام ١١٩٣م، لقد تفككت الوحدة التي حرص صلاح الدين على قيامها، واستقلت الأقاليم التي ضمتها سلطنته، وحين مات توران شاه بيد المماليك بعد أبيه الصالح أيوب زحف المماليك إلى العرش، وأطاحوا بدولة بني أيوب في مصر. لكن ظل الأيوبيون في الشام ممثلين في الناصر يوسف أمير حلب، الذي سارع ينضوي تحت لواء قطز سلطان مصر حين هاجم المغول حلب سنة ١٢٦٠، لكنه وقع في قبضة القائد المغولي كتبغا.

في عام ١٢٠٩م حقق جنكيز خان انتصاراً ساحقاً على الأويغور الذين كانوا خاضعين لسلطان كبير بلاد الخطا، وفي عام ١٢١١ وصلت قوات المغول إلى سمرقند، فسارع حاكمها أرسلان خان يعلن طاعته لجنكيزخان. وأصبح المجال خالياً للخان العظيم ليلقى محمد خوارزمشاه.

كان الصراع ناشباً بين محمد خوارزمشاه وزعيم النايمن كوجلوك، وذلك للسيطرة على بقية ممالك بلاد الخطا.

وحين كانت قوات محمد خوارزمشاه منطلقة لقتال قوات كوجلوك في عام ١٢١٦م وقع الصدام مع جيوش الخان، لكن محمد خوارزمشاه آثر الانسحاب إلى حدود بلاده تلافياً للحرب مع المغول.

يذكر التاريخ أن خوارزمشاه كان شجاعاً حقاً، بيد أنه في الوقت ذاته كان خفيفاً ذا رعونة، فقد ركب الغرور والكبرياء، وكان يقع تحت تأثير أمه الملكة (توركان خاتون)، حتى وصل تأثيرها إلى حد أن طرد ابنه جلال الدين وألجأه إلى غزنة يتولى عليها أميراً.

سارع خوارزمشاه بإرسال سفارة إلى جنكيزخان، فاستقبل الخان الأكبر الرسل بكل مظاهر الترحاب، وأعلمهم أنه يعدّ خوارزمشاه سلطاناً على الغرب مثلما هو سلطان على الشرق، وأنه لابد من قيام الصداقة والمودة بين المغول والخوارزميين.

لكن آن لهذا الود أن ينتهي؛ فقد حدث أن أرسل جنكيزخان قافلة تجارية من خمسمئة رجل و ٥٠٠ جمل على رأسها أربعة تجار، أرسلها إلى أوترار على حدود بلاد خوارزم، إلا أن والي أوترار من قبل خوارزمشاه واسمه

قادرخان قتل رجال القافلة ونهب السلع ووزعها على تجار سمرقند وبخارى واحتفظ بأثمانها .

ذهل جنكيزخان من التصرف الأحمق وأرسل إلى عاهل خوارزم سفارة من ثلاثة رجال يحتج على تصرف قادرخان، فماذا كان تصرف العاهل . . ؟ لقد قتل واحداً من الثلاثة، بينما حلق لحي الأخيرين وأرسلهما عائدين إلى الخان .

لكن كان على جنكيزخان أن يخلص أولاً من كوجليك، فأرسل جيشاً لجباً إلى مملكة كوجليك استطاع هزيمته والاستيلاء على المملكة وإعدام كوجليك نفسه .

أثار نبأ سقوط تركستان الشرقية في قبضة المغول الرعب في أوصال خوارزمشاه وجيشه .

وها هو الخان الأكبر يتولى بنفسه قيادة الجيش المتوجه إلى خوارزم يصحبه أولاده وكل قواده، كان تعداد جيش الخان فوق المئتي ألف .

وعلى الرغم من أن جيش خوارزمشاه كان ضعف قوات الخان إلا أنه أصابه الاضطراب وعدم التنظيم وسادته الفوضى، كما أن العاهل الخوارزمي وزع جيشه في بخارى وسمرقند ومدن ما وراء النهر .

درس جنكيزخان كل صغيرة وكبيرة خاصة بخوارزمشاه، ووقف على الأحوال الداخلية في ممالكه، وراح يضع الخطة المحكمة لتدمير ملكه .

وها هو كبير المغول قد وصل إلى بخارى في شهر شباط سنة ١٢٢٠ ميلادية فتسرع حاميتها إلى الفرار تاركة المدينة لتقع سهلة في قبضة جنكيزخان، غير أن فقهاء بخارى قاوموا المغول واستبسلوا في الدفاع عن مدينتهم ففنوا عن آخرهم .

وأمر الخان الأعظم فتم نهب المدينة واستباحتها، ثم أحرقت، ثم ارتحل المغول إلى سمرقند .

وصل المغول إلى سمرقند في آذار وراحوا يقتلون ويدمرون ويستبيحون الأعراس، ثم حرقوا مسجدتها، وأرسلوا صناع سمرقند إلى منغوليا .

وانطلق جوجي، ابن الخان الأعظم، إلى خوارزم، فانطلق خوارزمشاه فاراً من وجهه، وفي كانون الأول لقي مصرعه، وخلفه على العرش ابنه جلال الدين .

وكان على جلال الدين أن يحمل عبء الجهاد ضد المغول وزعيمهم الخان الأعظم .

لقد استولى جنكيزخان على إقليم ما وراء النهر، وعهد إلى ابنه تولوي بإتمام السيطرة على خراسان، فتوجه إلى مرو، عاصمة خراسان فحاصرها مدة خمسة أيام، ثم أرسل إلى حاكمها يطلب إليه التسليم على أن يبذلوا الأمان له ولأهل المدينة. أذعن الرجل وانطلق برجاله إلى تولوي فقبض عليهم وقتلهم ثم أعمل جنده السيف في رقاب أهل خراسان وأحرقوا المدينة.

والشيء نفسه حدث في نيسابور، فملكها تولوي وجيشه في نيسان سنة ١٢٢١ وأحرقوها.

لكن تمكن جلال الدين من تشكيل جيش ضخم من غزنة وما جاورها من بقايا مملكة خوارزم، انطلق به صوب الشمال، واستطاع أن يوقع بالمغول الهزيمة شمال كابول سنة ١٢٢١م.

كانت الهزيمة المفاجئة للمغول صدمة لجنكيزخان، وسرعان ما وجه جيشاً آخر لقتال جلال الدين من ثلاثين ألف مقاتل، لكن جلال الدين أبلى في القتال وهزم الجيش.

لكن بعد هذه المعركة اغترق قادة جيش جلال الدين بقوتهم وتخلوا عن جلال الدين.

حث المغول خطاهم واستطاعوا الاستيلاء على الطالقان، ثم انطلقوا إلى جبال هندكوش، واستطاعوا غزو غزنة والاستيلاء عليها، ثم تدميرها.

انطلق المغول إلى بحر قزوين، واستولوا على القوقاز، وهزموا الروس هزيمة نكراء عند بحر أزوف في مارس سنة ١٢٢٢م، واجتازوا نهر الفولغا وهزموا البلغار واحتلوا بلادهم.

لكن جنكيزخان لم يعمر كثيراً، إذ هلك في شهر آب من العام ١٢٢٧م وقد جاوز السبعين.

والآن ما هي الصورة التي ترسبت في أعماقنا عن جنكيزخان؟

كان شخصاً مربعاً، شرهاً إلى الدماء، لا تعرف الرحمة طريقاً إلى قلبه.
- أقام نظاماً ثابتاً مشروعاً من المذابح.

- كان عادلاً بين شعب المغول، وداهية في تدبير المكائد وخطط الحرب.

- كان يحترم من يقاتله ببسالة ويحتقر من يخون قومه ويبيع أمته وضميره ويتآمر على شعبه.

- في عهده أمن التجار من القراصنة في البر والبحر في أرجاء إمبراطورية

المغول، لكن ظهرت مشكلة خطيرة: من يتولى الزعامة بعده؟